دعوة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ومراحلها الجزء الثاني

كتبه غريب بتاريخ السبت ٣ شوال ١٤٤٢

نواصل مع مراحل دعوة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وفي هذا الجزء سوف نتحدث عن:

- الإعلان عن الجماعة المسلمة
- البحث عن مُهاجَر
- الهجرة وتأسيس الدولة
- الحرب مع قريش
- صلح الحديبية ودعوة أهل الأرض كافة

توقفنا في الجزء الأول عند تشكيل جماعة المسلمين سراً, مع مواصلة الدعوة علنا, وقد استمرت هذه المرحلة قرابة ثلاث سنوات بحسب ما ورد في كُتب السير.

خلال هذه الفترة ازدادت جماعة المسلمين وقويّت, من حيث العدد, ومن حيث التربية النفسية, مما جعل الظروف المحيطة بالدعوة قد تغيرت, ومن ثم فقد آن الأوان, لتغيير طريقة الدعوة فهي على بصيرة كما أسلفنا.

الإعلان عن الجماعة المسلمة

حينما قويت شوكة الجماعة وذلك بإسلام شخصيات قوية في المجتمع المكي, حتى صارت عصية على الإبادة, بدأ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم مرحلة جديدة من الدعوة وهي الأصعب في كل مراحل الدعوة.

إنها إعلان الجماعة المسلمة في المجتمع الجاهلي, هذا الإعلان يعتبر بمثابة إعلان التمرد السلمي على الدين الجاهلي, الأمر الذي لا يمكن أن يمر مر الكرام.

تتميز هذه الفترة بكونها فترة الصبر على الأذى دون الرد, قال ربنا عز وجل:

‹ ادفَع بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ السَّيِّئَةَ نَحنُ أَعلَمُ بِما يَصِفونَ ›

[المؤمنون: ٩٦]

ويقول:

‹ وَلا تَستَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادفَع بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ فَإِذَا الَّذي بَينَكَ وَبَينَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ۝وَما يُلَقّاها إِلَّا الَّذينَ صَبَروا وَما يُلَقّاها إِلّا ذو حَظٍّ عَظيمٍ۝وَإِمّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ فَاستَعِذ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ۝وَمِن آياتِهِ اللَّيلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ لا تَسجُدوا لِلشَّمسِ وَلا لِلقَمَرِ وَاسجُدوا لِلَّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُم إِيّاهُ تَعبُدونَ ›

[فصلت: ٣٤-٣٧]

هذه المرحلة مر بها موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه:

‹ وَقالَ المَلَأُ مِن قَومِ فِرعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَومَهُ لِيُفسِدوا فِي الأَرضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبناءَهُم وَنَستَحيي نِساءَهُم وَإِنّا فَوقَهُم قاهِرونَ۝قالَ موسى لِقَومِهِ استَعينوا بِاللَّهِ وَاصبِروا إِنَّ الأَرضَ لِلَّهِ يورِثُها مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَالعاقِبَةُ لِلمُتَّقينَ۝قالوا أوذينا مِن قَبلِ أَن تَأتِيَنا وَمِن بَعدِ ما جِئتَنا قالَ عَسى رَبُّكُم أَن يُهلِكَ عَدُوَّكُم وَيَستَخلِفَكُم فِي الأَرضِ فَيَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ ›

[الأعراف: ١٢٧-١٢٩]

هذه المرحلة هي المرحلة الأصعب, حيث أن من يسلم يعلم أنه سيلاقي التعذيب والتشريد, ولذلك لا يسلم إلا من ملأ الإيمان قلبه, وكان مستعدا للتضحية في سبيل الله.

في هذه المرحلة تتحول الدعوة من عمل الداعية وحده, إلى عمل جماعي الكل مشارك فيه بحسب استطاعته, وذلك أن الصمود والصبر في حد ذاته أبلغ من كثير من الخطب الرنانة.

إن عزة النفس التي منح الإسلام لذلك العبد الحبشي بلال رضي الله عنه, حيث تحول من عبد ذليل إلى مؤمن صابر يتحدى سادات مكة, لهي رسالة قوية لا يمكن إلا أن تؤثر في من يراه يرد على سياط أمية بتوحيد الله عز وجل

إن دماء سمية الطاهرة التي تنزف منها, لهي أقوى خطبة, ومشهد, يهز الوجدان البشري, ويضرب بطش قريش في مقتل, هذا البطش الذي عجز أمام امرأة كانت بالأمس أمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة, وأصبحت اليوم صخرة صماء يتحطم عليها جبروت قريش.

إن صبر ياسر على تعذيب زوجته وابنه بين يديه, لا يتزحزح عنه دينه, لهو بحد ذاته آية عظيمة, تجعل من في قبله خير ينتبه لعظمة هذا الدين الذي يتحمل في سبيله أصحابه ما لا يُحتمل.

لذلك أسلم كثير من المسلمين في تلك الفترة؛ لما رأوا القرآن وقعا متجليا في تلك الثلة المؤمنة الصابرة الفريدة في تاريخ البشرية.

في هذه الفترة لم يؤذن بعد للمسلمين في القتال, وليس عن ضعف كما قد يتبادر إلى الذهن, لأن فيهم رجال أقوياء, وبالإمكان اغتيال قيادات مكة بسهولة

وإنما لم يأذن الله في القتال حتى يصبح للمسلمين كيان سياسي على الأرض كما حدث فيما بعد.

لأن القتال في الإسلام ليس عشوائي, فردي, وإنما هو في إطار منظم, ولذلك لما أذن بالقتال فيما بعد في المدينة ظل في إطار الجماعة وليس قتال أفراد, فمثلا بعد غزوة بدر, كان المشركون يأتون إلى المدينة وهم آمنون يفادون أسراهم, وبعد نقض قريش صلح الحديبية أتى أبو سفيان رضي الله عنه وهو يومها مشرك سيد مكة, ليؤكد على استمرار العهد ومع ذلك لم يقتله أحد, لأن القتل ليس هدفا في حد ذاته في الإسلام.

البحث عن مُهاجَر

بعد فترة من إعلان جماعة المسلمين, أسلم عدد لا بأس من الناس بالرغم من تعذيب قريش للمسلمين, وصدها عن سبيل الله.

هذا المتغير الجديد, جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث عن مُهاجَر يهاجر إليه المسلمون.

فكانت الوجهة الأولى هي الحبشة، نظراً لكونها كانت تحت ملك عادل لا يظلم عنده أحد، وهذا ما يحتاجه المسلم لكي يعبد الله وحده.

الحبشة اتخذها قاعدة خلفية للجماعة المسلمة، تكون خارج سيطرة مكة، حتى إذا قررت قريش إبادة المسلمين، كما فعل الملك الكافر مع أصحاب الأخدود، لم تستطع ذلك نظرا لكون عدد لا بأس به من المسلمين في الحبشة.

ولم يستدعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن استقر الوضع للمسلمين في المدينة، حيث قدموا عليه في فتح خيبر كما تنص على ذلك الروايات.

رغم كون الحبشة كانت ملاذا آمنا للمسلمين، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يهاجر إليها، وفي ذلك دروس مهمة يجب أن ينتبه لها الداعية، من بينها ضرورة وجود حاضنة شعبية للدعوة تتبنى القضية ومستعدة للتضحية في سبيلها، وهذا ما لا يتوفر في الحبشة ساعتها.

فالحبشة بالرغم من كونها تحت ملك عادل، إلا أن الشعب لم يكن مرحبا بالإسلام كدين، ولذلك لا تصلح لإقامة دولة مسلمة تجمع المؤمنين، ولذلك لم يهاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الهجرة وتأسيس الدولة

بعد قرابة عشر سنوات من الصبر على الأذى المتواصل، والصمود على الدعوة، خير وصف لها قوله سبحانه:

﴿ أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلزِلوا حَتّى يَقولَ الرَّسولُ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ مَتى نَصرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصرَ اللَّهِ قَريبٌ ﴾

[البقرة: ٢١٤]

بعد هذه الفترة أذن الله في الهجرة إلى المدينة، والتي قبل الأنصار فيها أن يدافعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يدافعون عن أبناءهم.

لذلك لابد من قبول أهل الأرض للإسلام حتى يهاجر إليهم الداعية، فمن غير قبولهم للإسلام لن يستطيع الداعية إقامة دولة الإسلام فيهم أبداً.

بعد مجيء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، قام بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، لعدة أسباب منها تقوية تماسك المجتمع المسلم حيث يصبح كتلة واحدة متمازجة

ثانيا ليمتص المجتمع المدني المهاجرين بأقل خسائر مادية، فالمهاجرون فقراء، خلفوا وراءهم ديارهم وأموالهم وهاجروا في سبيل اللّه.

كذلك قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بما عُرف بوثيقة المدينة، والتي هي نوع من التحالف على المصالح المشتركة بين سكان المدينة المُؤلفون من المسلمين واليهود والمشركين العرب.

الحرب مع قريش إلى صلح الحديبية

بعد تأسيس الدولة أذن اللّه في القتال دفاعا عن النفس:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلونَ بِأَنَّهُم ظُلِموا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصرِهِم لَقَديرٌ ۝ الَّذينَ أُخرِجوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إِلّا أَن يَقولوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَولا دَفعُ اللَّهِ النّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَهُدِّمَت صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذكَرُ فيهَا اسمُ اللَّهِ كَثيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ ﴾

[الحج: ٣٩-٤٠]

فبدأت مرحلة جديدة من الدعوة نتيجة للمتغيرات الجديدة، والتي تتمثل في الحرب مع قريش، وصد عدوانها.

خلال هذه المرحلة كان العدو متبرصا بالمسلمين من كل جهة، من الداخل، اليهود والمنافقون، ومن الخارج قريش والأعراب المحيطون بالمدينة، فكانت مرحلة في صعوبتها لا تقل عن سابقتها.

صلح الحديبية ودعوة أهل الأرض

بعد ست سنوات تم القضاء فيها على العدو الداخلي وما بقى منه لم يعد يشكل خطرا ذا بال، أذن اللّه بفتح الحديبية، الفتح المعروف بصلح الحديبية

لأنه بموجب هذا الفتح سوف تضع الحرب مع قريش أوزارها, وسيتفرغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لدعوة الناس, وإرسال الوفود للأمصار, فلقد كان المسلمون من قبل هذا الفتح لا يكادون يجدون الوقت لالتقاط أنفاسهم من كثرة المعارك.

وهكذا دخل كثير من الناس في دين اللّه عقب هذا الفتح.

تُوج هذا الفتح، بفتح مكة بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية، وهكذا دخل الناس أفواجا في دين اللّه معلين بذلك نصر اللّه وفتحه:

› إِذا جاءَ نَصرُ اللّهِ وَالفَتحُ وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلونَ في دينِ اللّهِ أَفواجًا فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَاستَغفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوّابًا ‹

[النصر: ١-٣]

فتكللت مهمة الحبيب صلى اللّه عليه وسلم بالنجاح ولم يبق إلا القتال أن تذعن الأرض كلها لدين اللّه:

› وَقاتِلوهُم حَتّى لا تَكونَ فِتنَةٌ وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللّهَ بِما يَعمَلونَ بَصيرٌ ‹

[الأنفال: ٣٩]

تلك هي مراحل دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم التي مرّ بها مرحلة ومرحلة, وعلى المسلم اتباعها خطوة خطوة, فكل مرحلة تحضر للتي تليها, والذي يريد أن يتجاوزها, ويقفز إلى المرحلة الأخيرة, هو شخص لم يفهم عبادة الدعوة, ولم يدرك أن مراحلها متصلة كاتصال مراحل الصلاة, فهو كمن يريد أن يقتصر الصلاة في السلام بحجة أنه آخر ما في الصلاة.

فلا بد للداعية من معرفة الظروف التي هو فيها, ومعرفة كيف دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في مثل ظرفه, فالدعوة متعلقة بالظروف المحيطة, نظرا لكونها على بصيرة, وهذا ما يجهله كثير من الناس.